

العَذَابُ

عناصر الموضوع

٢١٢	مفهوم العذاب
٢١٣	العذاب في الاستعمال القرآني
٢١٤	الأنفاذ ذات الصلة
٢١٦	أنواع العذاب
٢٢٦	الأسباب الموجبة للعذاب
٢٣١	استعجال العذاب
٢٣٣	موانع العذاب
٢٣٧	الحكمة من العذاب

مفهوم العذاب

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس في مادة «عذب»: «العين والذال والباء أصل صحيح، لكن كلماته لا تكاد تقاس، ولا يمكن جمعها إلى شيء واحد، العذاب: يقال منه: عذب تعذيباً، وناس يقولون: أصل العذاب الضرب، واحتجوا بقول زهير: وخلفها سائق يحدو إذا خشيت نه العذاب تمد الصلب والعنقا قال: ثم استعير ذلك في كل شدة»^(١).

وقال ابن منظور: «والعذاب: النكال والعقوبة، يقال: عذبه تعذيباً وعذاباً، وكسره الزجاج على أعذبه، فقال في قوله تعالى: ﴿يُضَعِّفُ لَهُمَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]؛ قال أبو عبيدة: تعذب ثلاثة أعذبه؛ قال ابن سيده: فلا أدري، أهذا نص قول أبي عبيدة، أم الزجاج استعمله، وقد عذبه تعذيباً، ولم يستعمل غير مزيد»^(٢).
وقال الفيروز آبادي: «والعذاب: النكال، أعذبه وقد عذبه تعذيباً، وأصابه عذاب عذبين، كبغين، أي: لا يرفع عنه العذاب»^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

العذاب: «هو ألمٌ جسديٌّ أو نفسيٌّ شديد»^(٤).
وقيل: «كل ما شق على النفس احتماله وألمها»^(٥).
وقيل: «كل مؤلم للنفس إذا كان جزاء على سوء»^(٦).
بعد سرد أقوال علماء اللغة في معنى العذاب، نجد أن معنى العذاب في الاصطلاح لا يبتعد كثيراً عن المعنى اللغوي، حيث يأتي العذاب بمعنى العقاب والنكال، وكل ما شق على النفس.

(١) مقاييس اللغة ٤ / ٢٦٠.

(٢) لسان العرب ١ / ٥٨٥.

(٣) القاموس المحيط ص ١١٣.

(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار، ٢ / ١٤٧٤.

(٥) معجم لغة الفقهاء، قلعي ١ / ٣٠٧.

(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٣٩.

وانظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٩.

العذاب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عذب) الدالة على «العذاب» في القرآن الكريم (٣٧١) مرة^(١). والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّهُ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٢٦]
الفعل المضارع	٣٧	﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]
اسم الفاعل	٤	﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ^(١٥) [الإسراء: ١٥]
اسم المفعول	٤	﴿فَلَا تَنْفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ ^(٢٢) [الشعراء: ٢١٣]
الاسم	٣٢٢	﴿وَيَوْمَ الْقَيْمَةِ يَرَوْنَ إِلَهًا أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]

ذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن (العذاب) في القرآن على تسعة أوجه^(٢)، وأوصلها بعضهم إلى عشرة أوجه^(٣)، ولكن بتدبر هذه الأوجه والرجوع إلى كتب التفسير نجد أن العذاب لم يخرج عن معناه اللغوي: وهو النكال والعقوبة^(٤)، أو اسم لما استمر ألمه^(٥).

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

أي: «ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا وسخطنا، وضيقنا عليهم معاشهم، وأجذبنا بلادهم، وقتلنا سراتهم بالسيف»^(٦).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٧٦.

(٢) الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٤٤٨-٤٥١.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥٨٣/١.

(٥) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٤٤٨.

(٦) جامع البيان، الطبري ٩٢/١٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الألم:

الألم لغة:

أصل مادة (ألم) تدل على الوجع، يقال: وجع أليم^(١).

الألم اصطلاحًا:

هو الوجع الذي يلحق بالجسد، وينتج عن عقاب، أو مرض وما شابه^(٢).

الصلة بين العذاب والألم:

«أن العذاب أخص من الألم، وذلك أن العذاب هو الألم المستمر، والألم يكون مستمرًا وغير مستمر، ألا ترى أن قرصة البعوض ألم وليس بعذاب، فإن استمر ذلك قلت عذابي البعوض الليلة، فكل عذاب ألم وليس كل ألم عذابًا^(٣)».

٢ العقاب:

العقاب لغة:

مادة (عقب) لها أصلان صحيحان: أحدهما: يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والآخر: يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة^(٤).

العقاب اصطلاحًا:

العقاب: جزاء الشر^(٥)، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذنب من المحنة^(٦).

الصلة بين العذاب والعقاب:

«أن العقاب ينشأ عن استحقاق، وسمي بذلك؛ لأن الفاعل يستحقه عقيب فعله، ويجوز أن يكون العذاب مستحقًا وغير مستحق^(٧)».

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/١٢٦.

(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٢٠.

(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٩.

(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/٧٧.

(٥) الكلبيات، الكفوي ص ٦٥٤.

(٦) كشاف اصطلاحات الفنون ٢/١١٩٢. بتصرف.

(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٤٠.

٣ التنكيل:

التنكيل لغة:

قال ابن منظور: «نكل به تنكيلاً إذا جعله نكالاً وعبرة لغيره، ويقال: نكلت بفلان إذا عاقبته في جرم أجرمه عقوبة تنكل غيره عن ارتكاب مثله، وأنكلت الرجل عن حاجته إنكالاً إذا دفعته عنها»^(١)

التنكيل اصطلاحاً:

هو العقاب بما يروع ويردع ويجعله عبرة ودرساً لغيره^(٢).

الصلة بين العذاب والتنكيل:

التنكيل هو جزء من العذاب، بل هو ناتج عن العذاب نفسه.

٤ الجزاء:

الجزاء لغة:

المكافأة على الشيء^(٣).

الجزاء اصطلاحاً:

هو الغناء والكفاية والمكافأة بالشيء وما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ [لقمان: ٣٣]^(٤).

الصلة بين الجزاء والعذاب:

الجزاء هو ما يناله الإنسان على عمله الشر من عذاب، فالعذاب ناتج عن الجزاء.

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦٧٧/١١.

(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢٢٨٤/٣.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤٣/١٤، الكليات، الكفوي ص ٣٥٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٥١/٣٧.

(٤) انظر: المفردات، الراغب ص ١٩٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣٨٠/٢.

أنواع العذاب

يمكن تقسيم العذاب إلى نوعين رئيسيين:

أولاً: عذاب حسي:

ذكر القرآن الكريم صوراً من العذاب الحسي الذي لحق وسيلحق بالكفار والعصاة، ومن تلك الصور:

- الغرق والطوفان.

الذين عذبوا بالغرق والطوفان كثر، أذكر بعضاً منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- قوم نوح.

فقوم نوح عليه السلام هم أول قوم من الأقسام ينزل بهم هذا النوع من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

لقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، ولكنهم كذبوه، فأخذهم الطوفان، والحال أنهم كانوا مستمرين على الظلم والكفر، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره، والطوفان: هو ما يطلق على كثرة وشدة السيل والريح والظلام، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء^(١).

وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا﴾

[نوح: ٢٥].

قال ابن كثير: «من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم أغرقوا فأدخلوا ناراً»^(٢).

- فرعون وجنوده.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُنُودُهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

أي: فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذاً سريعاً حاسماً، فأغرقناه هو وجنوده في البحر فكانت عاقبتهم الإغراق الذي أزهد أرواحهم واستأصل باطلهم^(٣).

- مملكة سبأ.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَجَرٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ﴾ [سبأ: ١٦-١٧].

والمعنى: فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا، فكانت نتيجة ذلك، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف، الذي اجتاح أراضيهم، فأفسد مزارعهم، وأجلاهم عن ديارهم، ومزقهم شر ممزق وبدلناهم بالجنات اليانعة التي كانوا يعيشون فيها،

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٣٦.

(٣) انظر: لباب التأويل، المخازن، ٣/ ٣٦٤.

(١) انظر: الكشف، الزمخشري، ٣/ ٤٤٥.

وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم إذا رأى ريحاً كرهه وظهر ذلك في وجهه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً، عرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله أرى الناس، إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيت عرفته في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] (٣).

٣. الحاصب (٤).

الذين عذبوا بهذا النوع من العذاب:
١. قوم لوط.

قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠].
أي: فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه، بأن أرسلنا عليه ريحاً شديدة رمته بالحصباء.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح، رقم ٨٩٩، ٦١٦/٢.

(٤) الحاصب: الريح الشديدة تحمل التراب والحصباء.

انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١٧٧/١.

بساتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل، وتناثرت في أماكنهم الأشجار التي لا تسمن ولا تغنى من جوع، بدلاً من تلك الأشجار التي كانت تحمل لهم ما لذ وطاب، وعظم نفعه (١).

٢. الريح.

وهذا النوع من العذاب لحق بقوم عاد لما كفروا بربهم.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَادٌ فَاسَتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِتَأْيِيدِنَا يَاجُحِدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

أي: فأرسلنا على قوم عاد ريحاً شديدة الهبوب والصوت، وشديدة البرودة أو الحرارة في أيام نحسات أو مشؤومات نكدات عليهم بسبب إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب المخزي لهم في الحياة الدنيا (٢).

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَاقْتُلْنَا آلَ الْفِرْعَوْنَ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٨٤/٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٧/٥.

فأهلكته^(١).

قال القرطبي: «قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني: قوم لوط، والحاصب ريح يأتي بالحصباء، وهي الحصى الصغار، وتستعمل في كل عذاب^(٢).

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُ بِسَحْرِ﴾ [القمر: ٣٤].

٢. أصحاب الفيل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُؤِلَ﴾ [الفيل: ١-٥].

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ﴾ أي: من طين متحجر محرق، وعن عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة، فإذا أصاب أحدهم حجر منها، خرج به الجدري، وكان ذلك أول يوم رئي فيه الجدري بأرض العرب^(٣).

وهو الذي حذر الله المشركين منه، قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٧].

أي: بل أأمتتم - أيها الناس - من السماء،

وهو الله عز وجل بسلطانه وقدرته، أن يرسل عليكم حاصبًا أي: ريحًا شديدة مصحوبة بالحصى والحجارة التي تهلك، فحيثما ستعلمون عند معائنتكم للعذاب، كيف كان إنذارى لكم متحققًا وواقعًا وحقًا^(٤)، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء: ٦٨].

٤. الجوع والعطش وضيق الأرزاق.

وهو ما عذب به قوم سبأ، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

أي: وجعل الله قرية موصوفة بهذه الصفات مثالًا لكل قوم أنعم الله عليهم بهذه النعم، فكان موقف أهل هذه القرية من تلك النعم الجليلة، أنهم جحدوا هذه النعم، ولم يقابلوها بالشكر، وإنما قابلوها بالإشراك بالله تعالى مسدي هذه النعم، فأذاق سبحانه أهلها لباس الجوع والخوف، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله^(٥).

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢٤٣/٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣٤٥/١٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣٤.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٤/٢٩.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٠٩/١٧.

٥. الخسف (٣).

وهو العذاب الذي لحق بقارون لما بغى وأفسد في الأرض، قال تعالى: ﴿فَنَسَفْنَا بِهِمُ وَيْدَهُمُ الْأَرْضَ فَمَا كَانُوا لَهُمْ مِنْ فَتْنَةٍ بَصُورَةٍ، مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿فَنَسَفْنَا﴾ من الخسف وهو النزول في الأرض، يقال: خسف المكان خسفاً - من باب ضرب - إذا غار في الأرض (٤).

قال ابن كثير: «لما ذكر الله تعالى اختيال قارون في زيته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به ويداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم أن أباه حدثه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجلٌ يجر إزاره من الخيلاء، خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة) (٥)» (٦).

(٣) الخسف: هو الذهاب بالشئ، ومنه خسفت الأرض، أي: غارت بما عليها واختفى بداخلها.

انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٣٤/١.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٨٥، ١٧٧/٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ٢٥٥/٦.

بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال ابن كثير: «بان النقص في الثمار والزرع بسبب المعاصي ليزيقهم بعض الذي عملوا»، وقال: «يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه على صنيعهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي» (١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركونهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المثونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم) (٢).

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣٢٠/٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه، رقم ٤٠١٩، ١٣٣٢/٢، والحاكم في المستدرک، ٥٤٠/٤. قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ولم يتعقبه الذهبي.

وهو أحد أنواع العذاب التي تكون في آخر الزمان كما في حديث عمران بن حصين حيث سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (في هذه الأمة خسفٌ ومسحٌ وقذفٌ)، فقال رجلٌ من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذاك؟ قال: (إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمر)^(١).

وقد حذر الله العصاة من هذا العذاب، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَاءَ نَحْنُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

ومن صور الخسف الزلازل التي تميد بالأرض فتخرب المدن بعد عمارها، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم أن الزلازل تكثر بين يدي الساعة، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل... وتكثر الزلازل)^(٢).

قال ابن حجر: «وقد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها»^(٣).
٦. المسخ.

المسخ: هو تحويل صورة إلى ما هو أقبح منها^(٤)، أو هو كما قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: «تشويه الخلق والخلق، وتحويلهما من صورة إلى صورة، قال بعض الحكماء: المسخ ضربان: مسخ خاص يحصل في الفينة بعد الفينة وهو مسخ الخلق، ومسخ قد يحصل في كل زمان ومكان، وهو مسخ الخلق؛ وذلك بأن يصير الإنسان متخلقا بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات، نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفي الشره كالخنزير»^(٥).

وقد عذب الله عز وجل بني إسرائيل بهذا النوع من العذاب عندما اعتدوا في السبت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

يرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أي: إنهم مسخوا مسخاً نفسياً فصاروا كالقردة في شرورها

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخسف، رقم ٤٢٢١٢ / ٤٩٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٣٩٣ / ٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب خروج النار، رقم ٧١٢١، ٥٩ / ٩.

(٣) فتح الباري، ١٣ / ٨٧.

(٤) التعريفات، الجرجاني، ص ٢٢٥.

(٥) المفردات، ص ٤٦٨.

فبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة^(٣).

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا العذاب يكون في هذه الأمة، ووصف ذنب أولئك الممسوخين والذي بسببه يمسخهم الله، فقال صلى الله عليه وسلم: (سيكون في أمتي خسفٌ ومسحٌ وقذفٌ)^(٤).
٧. الصيحة^(٥).

وهي عذاب الله الذي عذب به قوم صالح، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينَ﴾ [هود: ٦٧].

والصيحة هي كما قال القرطبي في تفسيرها: «صبح بهم فماتوا، وقيل: صاح بهم جبريل، وقيل: غيره، وقال أيضًا: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم»^(٦).

والمعنى: وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح عليه السلام عن طريق الصيحة

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر، رقم ١٠٦/٧، ٥٥٩٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخسف، رقم ٢١٥٢، ٤/٤٥٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٣٩٣/٤.

(٥) الصياح: الصوت، وهو صوت كل شيء إذا اشتد، والصيحة هي العذاب، كعذاب قوم صالح.

انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/٥٢١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٧/٤٢، ٩/٦١.

وإفسادها لما تصل إليه أيديها، و لكن جمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير^(١) وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحذر أهل الكتاب - إذا كذبوه وخالفوا أمره - أن يحل بهم ما حل بأسلافهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِمَسْرِينَ ذَلِكَ مَثْوًى عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وهذا النوع من العذاب الذي أحله الله بالسابقين؛ توعده الله به اللاحقين المخالفين من هذه الأمة، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري، قال حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري - والله ما كذبتني - سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ليكونن من أمتي أقوامٌ، يستحلون الحر^(٢) والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوامٌ إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحةٍ لهم، يأتيهم - يعني: الفقير - لحاجةٍ فيقولون: ارجع إلينا غداً،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/١٧٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ١/١٦٠.

(٢) الحر بكسر الحاء هو الفرج، جاء في الحديث كناية عن الزنا.

انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٥١/٦.

الَّذِينَ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

[المائدة: ٣٣].

والمعنى: إنما جزاء أي: عقاب الذين يحاربون الله ورسوله أي: يخالفونهما ويعصون أمرهما، ويعتدون على أوليائهما ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: يعملون بسرعة ونشاط في الأرض لا من أجل الإصلاح وإنما من أجل الإفساد فيها عن طريق تهديد أمن الناس، والاعتداء على أموالهم وأنفسهم، جزاء هؤلاء ﴿أَنْ يُقْتَلُوا﴾ والتقتيل هو القتل، إلا أنه ذكر بصيغة التضعيف لإفادة الشدة في القتل وعدم التهاون في إيقاعه عليهم، لكونه حق الشرع وللإشارة إلى الاستمرار في قتلهم ما داموا مستمرين في الجريمة فكلما كان منهم قتل قتلوا.

﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ والتصليب: وضع الجاني الذي يراد قتله مشدوداً على مكان مرتفع بحيث يرى بعد القتل ليكون عبرة لغيره، وردعاً له عن ارتكاب المعاصي والجرائم، قالوا: ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام وقيل: لمدة يوم واحد. وجيء هنا أيضاً بصيغة التضعيف لإفادة التشديد في تنفيذ هذه العقوبة وإثبات أنه لا هوادة فيها.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ أي: تقطع مختلفة، فلا تكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد بل

الشديدة التي صيحت بهم بأمر الله عز وجل فأصبحوا بسببها في ديارهم جائمين أي: هلكى صرعى، ساقطين على وجوههم، بدون حركة^(١)، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ لِّلْخَطِرِ﴾ [القمر: ٣١].

وجاء في السنة ما يوضح ذلك، فعن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات؛ فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعني: الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فأخذتهم الصيحة فأهدم الله من تحت السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله، قيل من هو؟ قال: أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه)^(٢).

٨. القتل والصلب وتقطيع الأعضاء والنفي من الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک، رقم ٣٢٤٨، ٣٥١/٢.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

تكونان من جانبيين مختلفين.
﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: يطردوا من الأرض التي اتفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى ليستشت شملهم، ويتفرق جمعهم، مع مراقبتهم والتضييق عليهم. وفسر بعضهم النفي بالحبس في السجون، لأن فيه إبعادا لهم وتفريقا لجمعهم^(١).

ثانيًا: العذاب المعنوي :

وقد ذكر القرآن الكريم صورًا من العذاب المعنوي، والتي منها:
١. الخزي والصغار.

وهو العقاب الذي سيلحق بمن منع الذكر والصلاة في مساجد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

قال ابن كثير: «عندما حج النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع لم يجترئ أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام، وهذا هو الخزي في الدنيا لهم، المشار إليه بقوله تعالى: لهم في الدنيا خزي لأن الجزاء من جنس العمل»^(٢).

وهو العقاب الذي سيلحق بالمتكبر المغرور بنفسه، قال تعالى: ﴿ثَانِي عَذَابُهُ

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْسِلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافِ وَالْعُدُوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْلُدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ أَقْبَسْتُمْ يُرَدُّونَ إِلَٰهَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

يبين الله عز وجل العقاب الذي سيلحق بالذين يفرقون بين أحكام الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اسم

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٢٦/١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣٨٧/١.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤٧/٦، فتح القدير، الشوكاني ٣٨/٢.

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴿٩﴾

[الحج: ٩]. أي: هوان وذلة وصغار^(١).

وهو ما سيلحق الكفار يوم القيامة على

رؤوس الأشهاد، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ

مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]

قال سيد طنطاوي في تفسير الآية:

«وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ

تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ في مقام التعليل

لضراعتهم بأن يبعدهم عن النار، أي: أبعدها

ياربنا عن عذاب النار، فإنك من تدخله النار

تكون قد أخزيتهم أي أهنته وفضحته على

رؤوس الأشهاد، والخزي: مصدر خزي

يخزي بمعنى ذل وهان بمرأى من الناس،

وفي هذا التعليل مبالغة في تعظيم أمر

العقاب بالنار»^(٢).

٢. الفضيحة.

من أسماء سورة التوبة الفاضحة؛ لأنها

فضحت المنافقين وبينت نواياهم الخبيثة،

وهذه بعض الآيات من السورة تفضحهم.

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ

تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ

أَسْتَهْزِئُ بِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لِبَقُولِكُمْ إِنْ كُنَّا

نَحْوُكُمْ وَلَنَعْبُدُ قُلْ يَا آلِهَتِي وَعَايِنِي وَعَسَوْفَ كُنْتُمْ

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦٢٨.

(٢) التفسير الوسيط، ٢/ ٣٧٤.

تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ

إِيمَانِكُمْ إِنْ نَقَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ فَغَدَبْتُ

طَائِفَةٌ بَأْتَهُمْ كَانُوا يَجْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ [التوبة: ٦٤

-٦٦].

قال صاحب المنار: «هذه الآيات في بيان

شأن آخر من شئون المنافقين التي كشفت

سواتهم فيها غزوة تبوك، أخرج ابن أبي

شيبه وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد

في قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ

تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ قال: كانوا يقولون

القول فيما بينهم ثم يقولون: عسى أن لا

يفشي علينا هذا، وعن قتادة قال: كانت هذه

السورة تسمى الفاضحة، فاضحة المنافقين،

وكان يقال لها المنبئة، أنبأت بمثالبهم

وعوراتهم»^(٣).

الآيات التي فضحت المنافقين في القرآن

الكريم كثيرة، أذكر بعضها منها:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا

بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَذِّلُونَ

اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَذِّلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا

يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا

قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

مُصْلِحُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ

النَّاسُ قَالُوا اتَّبِعُوا آلَافَ شَقَاقَةٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٥٣.

سبيل الكذب والمخادعة والمداهنة، تشهد أنك رسول من عند الله تعالى، وأنت صادق فيما تبلغه عن ربك، فيفضحهم الله ويكذبهم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ والله تعالى يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم: نشهد إنك لرسول الله، لأن قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذي جئت به^(٢).
٣. الإهانة.

جاء في مادة (هون): «الهون: الخزي، والهون، بالضم: الهوان، والهون والهوان: نقیض العز»^(٣)، ورجل فيه مهانة أي ذل وضعف^(٤).

وأذكر بعض الآيات التي تحدثت عن هذا النوع من العذاب:

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

المهين؛ هو العذاب الذي يقترن به الخزي والذل، وهو أنكى وأشد على المعذب^(٥).

وقال تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَذَفُ فِيهِ مِهْنَانَا﴾ [الفرقان: ٦٩].

يعني: أنه يبقى في العذاب والهوان

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ٤٣٨/١٣.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٢٩٠/٣٦.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥٢/٢.

السَّهْمَةَ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبَحَتْ يُخْدَرْتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٨-١٦]

قال الزمخشري: «وصف الله عز وجل حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وفضحهم، وسفههم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل طغيانهم، ودعاهم صما بكما عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة»^(١).

فالآيات السابقة فضحت المنافقين بشكل واضح وصريح على رؤوس الأشهاد، وأظهرتهم على حقيقتهم.

وفي موطن آخر يفضح الله المنافقين ويكذبهم، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ١-٣].

أي: إذا حضر المنافقون إلى مجلسك يا محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا لك على

(١) الكشف، ٥٣/١.

الأسباب الموجبة للعذاب

الأسباب التي توجب العذاب على المعذب كثيرة، ستعرض لأهمها في هذا المبحث.

أولاً: الشرك والكفر:

مما يوقفنا على عظم جريمة الشرك والكفر قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٨ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ تَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ ۖ وَخَسِرَ الَّذِينَ لِبَالٌ هَٰذَا ۝٨٩ أُنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

وقال تعالى محذراً من الشرك الذي أحل العقوبة بالأمم السابقة: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

قال ابن كثير: «الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم، وكذلك أنتم أيها المشركون: احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر»^(٤).

لقد جعل الله العقوبة للأمم الكافرة سنة له في خلقه، فقال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَن نَّحْدِلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٤/١٦٩.

صاغراً حقيراً إلى ما لا نهاية^(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ لَكُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَكُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

أي: عذاب يوقعهم في الذل والمهانة والصغار في الدنيا والآخرة^(٢).

٤. الذل.

وهو العقاب الذي سيلحق بمن اتخذ آلهة أخرى غير الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

والمعنى: إن الذين اتخذوا العجل معبوداً، واستمروا على ضلالتهم سيصيبهم ذل وهوان وصغار في الحياة الدنيا، وبمثل هذا الجزاء في الآخرة أيضاً^(٣).

وهو العقاب الذي لحق ببني إسرائيل؛ لأنهم كفروا بآيات الله عز وجل، وقتلوا أنبيائهم فكان الذل والهوان جزاؤهم، قال تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

[انظر: الإهلاك: وسائل الإهلاك]

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/٢٤٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/٣٤٧.

(٣) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٥/٤٧٠.

الكفار، وجعل ذلك سنة فيهم، فهو يعذب بمثله من استحقه لا يقدر أحد أن يبدل ذلك ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره^(٣).

ثانيًا: الطغيان والظلم:

ذكر القرآن الكريم أن سبب مصرع كثير من الأمم، الظلم والطغيان، كقوم عاد وثمود وفرعون، فقال تعالى: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَاكْتَرَوْا فِيهَا الْفُسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِرْصَادٍ﴾ [الفجر: ٩-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة؟ فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضًا واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حيثنذ عقوبته وتغييره^(٤)»

والظلم من المعاصي التي يعجل الله

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا سنة الله بهم في عاجل الدنيا على كفرهم به أليم العقاب، يقول: فهل ينتظر هؤلاء إلا أن أحل بهم من نعمتي على شركهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللت بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم^(١)».

وقد جاءت الآيات تتوعد الأمم الكافرة بسنة الله الماضية في أهل الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصِمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم عذابًا شديدًا إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَعَاسَبْنَاهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تَكَرَّرَ ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨-٩]^(٢).

وقال القرطبي: «أجرى الله العذاب على

(١) جامع البيان، ٢٠/٤٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/٤٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/٣٦٠.

(٤) جامع البيان، ١٦/٣٨٢.

عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من ذنبٍ أجدر أن يجعل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم) (١).

وقد تتأخر عقوبة الظلم إلى حين وأجل يعلمه الله، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) قال ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (٢).

ثالثاً: كثرة المعاصي والمنكرات وقلة الأمر بالمعروف:

من الأسباب التي تحل العذاب العاجل في الأمم فشو المنكرات وشيوعها، وذلك عندما تقصر الأمة بواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٠٣٧٥، ١٠/٣٤، والترمذي في سننه، رقم ٢٥١١، ٦٦٤/٤.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٥٨٨/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك)، رقم ٧٤/٦، ٤٦٨٦.

والمراد بالفتنة هنا العذاب الديني، كالأمرض، والقحط، واضطراب الأحوال، وتسلب الظلمة، وعدم الأمان وغير ذلك من المحن والمصائب والآلام التي تنزل بالناس بسبب غشيانهم الذنوب، وإقرارهم للمنكرات، والمداينة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣).

عن زينب بنت جحش رضي الله عنها: (أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها فرعاً يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثرت الخبث) (٤).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركنهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا) (٥).

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٨/٤٦٥٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم ١٣٨/٤، ٣٣٤٦.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٠١٩، ١٣٣٢/٢، والحاكم في المستدرک، ٥٤٠/٤.

رابعاً: كفران النعم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال الإمام الطبري: «ولئن كفرتم أيها القوم نعمة الله فجحدتموها بترك شكره عليها وخلافه في أمره ونهيه وركوبكم معاصيه إن عذابي لشديد، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي»^(١).

وقد ذكر القرآن الكريم مصارع الأمم التي كفرت بنعم الله عز وجل فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قال المناوي: «ما زال شيء عن قوم أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما ثبتت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم، وفي الحكم: من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها، وقال الغزالي: والشكر قيد النعم، به تدوم وتبقى، وبتركه تتحول»^(٢).

قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ولم يتعقبه الذهبي.

(١) جامع البيان، ١٣/ ١٨٦.

(٢) فيض القدير ٣/ ٤١٨.

خامساً: ترك الصلاة:

من تهاون بالصلاة وضيعها فهو متوعد بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

والصلاة من أعظم الذكر.

وقد جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم تتحدث عن العذاب الذي أعده الله لتاركي الصلاة، فقال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقال أيضاً: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ [الماعون: ٤-٥].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بالعذاب الذي يلقيه في قبره المتهاون بالصلاة، ففي الصحيح عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص. وإنه قال ذات غداة: إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالاني: انطلق، وإنني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه فيتندهه الحجر ها هنا، فيتبع الحجر

فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، قال: قلت لهما سبحان الله! ما هذان؟ قال قالالي: انطلق انطلق إلى أن قال: أما الرجل الأول الذي أثبت عليه يثلغ رأسه بالحجر؛ فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرقضه، وينام عن الصلاة المكتوبة^(١)، ومعنى يثلغ رأسه: أي يشقه، ويتدهده: يتدحرج.

سادسًا: منع الزكاة:

قاتل الصديق رضي الله عنه من فرق بين الصلاة والزكاة، وأقره على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، وما ذاك إلا لعظيم مكانتها في هذا الدين.

فإذا كانت الزكاة بهذه المكانة فلا عجب أن رتب الشارع العقوبات العظيمة على من منعها، ومن تأمل العذاب المترتب على منع الزكاة أدرك تمام الحكمة الإلهية في المناسبة بين الذنب وبين العقوبة، فإذا كان من معاني الزكاة البركة والنماء، فإن من عقوبة منعها منع المطر الذي تنمو به الخيرات، وتخرج الأرض بركتها، ومن عقوبتها أيضًا أن يبتلى الناس بالسنين وهي الجذب والقحط، فلما منعوا فضول أموالهم؛ شدد الله عليهم في أرزاقهم.

قال ابن القيم رحمه الله: «وتأمل حكمة الله في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين؛ كيف جوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعم الحق فمنعتم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم»^(٢).

أما العذاب الذي سيلحق مانعي الزكاة في الآخرة يتضح من خلال قول الحق تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٤﴾ ^(٣) يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكَوَّى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٣٤-٣٥].

سابعًا: ترك الجهاد في سبيل الله:

بين النبي صلى الله عليه وسلم مكانة الجهاد في سبيل الله بأنه ذروة سنام هذا الإسلام؛ وبين أيضًا العاقبة المترتبة على تركه، وهذا على سبيل المقابلة، فلما كان الجهاد سبيل العز والسؤدد؛ كان تركه سبيل الذلة والمسكنة.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم ٤٤/٩، ٧٠٤٧.

(٢) مفتاح دار السعادة، ١/ ٣١٥.

استعجال العذاب

أخبر تعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم أن المشركين استعجلوا العذاب في الدنيا من باب الاستهزاء والسخرية فنزل بهم العذاب سريعاً.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِندِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

قال الزمخشري: «وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعنى: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر، ومرادهم نفي كونه حقاً، وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكروه عذاباً، فكان تعليق العذاب بكونه حقاً، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء، فإن قلت: ما فائدة قوله: من السماء والأمطار لا تكون إلا منها؟، قلت: كأنهم يريدون أن يقولوا: فأمطر علينا السجيل وهي الحجارة المسومة للعذاب، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل» (٤).

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

(٤) الكشف، ٢/٢١٦.

تبايعتم بالعينة^(١)، وأخذتم أذناب البقر، ورَضِيتُم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم^(٢).

وقال تعالى: ﴿لَا تَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَدِيلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

قال نجدة بن نفيع رضي الله عنه: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله عز وجل: ﴿لَا تَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً من أحياء العرب فتأقلوا؛ فأمسك عنهم المطر، وكان عذابهم^(٣).
[انظر: الإهلاك: أسباب الإهلاك]

(١) العينة: أن يبيع سلعة بضمن لأجل ثم يشتريها منه بأقل منه.

انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ٨٤/١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، ٣/٢٧٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٦/١.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک، رقم ٢٥٠٤، ١١٤/٢.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

قال الألوسي: «قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي: دعا داع به، فالسؤال بمعنى الدعاء، والمراد: استدعاء العذاب وطلبه، والسائل هو النضر بن الحارث - كما روى النسائي وجماعة وصححه الحاكم - حيث قال إنكاراً واستهزاء: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقيل السائل: أبو جهل، حيث قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾^(١).

قال طنطاوي: «وعلى أية حال فسؤالهم عن العذاب، يتضمن معنى الإنكار والتهكم، كما يتضمن معنى الاستعجال، كما حكته بعض الآيات الكريمة، ومن بلاغة القرآن، تعدية هذا الفعل هنا بالباء، ليصلح لمعنى الاستفهام الإنكاري، ولمعنى الدعاء والاستعجال»^(٢).

ولما توعد الله عز وجل الكفار بالعذاب في الآخرة في قوله: ﴿أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨].

استعجلوا ذلك العذاب، وقالوا: متى يحصل ذلك كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيْنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٣).

أَتَرْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِمْ ؕ كُنْتُمْ بِهُمْ تَسْتَعْجِلُونَ [يونس: ٥٠-٥١].

والمعنى: أخبروني أيها الجاهلون الحمقى: أي دافع جعلكم تستعجلون نزول العذاب؟ سواء أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه، ولا يمكن أن يتعجله عاقل، لأنه كما قال الزمخشري: «أن العذاب كله مكروه، مر المذاق، موجب للنفار منه، فكيف ساغ لكم أن تستعجلوا نزول شيء فيه هلاككم ومضرتكم؟!»^(٤).

فالآية الكريمة توبيخ لهم على استعجالهم وقوع شيء من شأن العقلاء أنهم يرجون عدم وقوعه، ولذا قال القرطبي: «قوله: «ماذا يستعجل منه المجرمون» استفهام معناه التهويل والتعظيم، أي: ما أعظم ما يستعجلون به، كما يقال لمن يطلب أمراً تستوخم عاقبته: ماذا تجنى على نفسك؟!»^(٥).

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ [الرعد: ٦].

أي: أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الحال في الطغيان، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعقاب الله إذا ما استمروا في كفرهم، سخروا منه، وتهكموا

(١) روح المعاني، ٦٢/١٥.

(٢) التفسير الوسيط، ٩٢/١٥.

(٣) الكشف، ٣٥١/٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٣٥٠/٨.

موانع العذاب

يستطيع المرء أن يدفع العذاب عن نفسه من خلال أمور كثيرة، منها:
أولاً: التوبة:

التوبة مانع شامل يمنع من إنفاذ وعيد جميع الذنوب، الكفر فما دونه من المعاصي، فليس شيء يغفر الله به جميع الذنوب إلا التوبة النصوح.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَنْظُرُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال الإمام الشوكاني: «واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله، لاشتغالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فبها لها من بشارة تروح لها النفوس، وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾» (٤).

به وقالوا له على سبيل الاستهزاء: ائتنا بما تعدنا به من عذاب إن كنت من الصادقين (١).

قال طنطاوي: «والجملة الكريمة تحكي لونا عجيبا من ألوان توغلهم في الجحود والضلال، حيث طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم تعجيل العقوبة التي توعدهم بها، بدل أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلامة والأمان والخير والعافية» (٢).

وقال تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣) ﴿يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤].

يخبر الله تعالى عن جهل المشركين وحمافتهم في استعجالهم إيقاع عذاب الله بهم، ولولا كون العذاب محددا بوقت معلوم، ولولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة؛ لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، وسوف يأتيهم بالتأكيد فجأة، وهم لا يحسون بمجيئه، بل يكونون في غفلة عنه، ثم أكد تعالى طلبهم نزول العذاب بقوله: ﴿يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: يطلبون منك حدوث العذاب، وهو واقع بهم لا محالة، وإن جهنم ستحيط بهم من كل جانب (٣).

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٣.

(٢) التفسير الوسيط، ٧/ ٤٤٧.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/.

(٤) فتح القدير، ٤/ ٥٣٨.

وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

أي: فمن تاب إلى الله عز وجل توبة صادقة من بعد ظلمه لنفسه بسبب إيقاعها في المعاصي التي من أكبرها السرقة وأصلح عمله بالطاعات التي تمحو السيئات فإن الله يتوب عليه أي: يقبل توبته، ويغسل حوبته، إن الله واسع المغفرة والرحمة ومن مظاهر ذلك أنه سبحانه فتح لعباده باب التوبة والإنابة، فالآية الكريمة ترغب العصاة من السراق وغيرهم في التوبة إلى الله، وفي الرجوع إلى طاعته حتى ينالوا مغفرته ورحمته^(١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله عز وجل ييسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)^(٢).

ثانيًا: الاستغفار:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوًّا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

أي: ومن يعمل عملاً سيئاً يؤذي به غيره،

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ١٣٦/٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة، رقم ٢٧٥٩، ٢١١٣/٤.

أو يظلم نفسه بارتكاب الفواحش، التي يعود معظم ضررها على نفسه كشرب الخمر، وترك فرائض الله التي فرضها على عباده ثم بعد كل ذلك يستغفر الله، فيتوب إليه توبة صادقة نصحاً يجد الله بفضلها وكرمه غفوراً رحيمًا^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)^(٤).

والاستغفار لا يمكن أن يمنع العذاب لمن مات على الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصي لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة، فمن مات من المسلمين بدون توبة من الذنوب التي اقترفها فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة^(٥).

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩٥/٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، رقم ٢٧٤٩، ٢١٠٦/٤.

(٥) انظر: الوسيط، الزحيلي، ٣٢٨/١.

ثالثاً: دعاء المؤمنين:

يسن للمؤمن الدعاء لإخوانه المؤمنين بالمغفرة والرحمة، وهذا يدل قطعاً على انتفاع المدعو له بدعاء إخوانه المؤمنين، واستغفارهم له.

قال الله تعالى: ﴿قَاعِلَرَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: واستغفر أيها الرسول الكريم لذنوب أتباعك وأمتك، بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم، وهذا فيه تعليم للصحابة وللمؤمنين أن يدعوا لإخوانهم المؤمنين^(١)، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أي: ياربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان فهم أسبق منا إلى الخير والفضل^(٢).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: (صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازة، فحفظت من دعائه وهو يقول:

(١) انظر: روح المعاني، الألويسي، ٥١٠/٨.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(اللهم اغفر له وارحمه وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجته، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر) قال: (حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت)^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة، كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه)^(٤).

والدعاء بالمغفرة والرحمة لا يجوز لمن لقي الله كافراً، ولا يمنع إنفاذ وعيد الله فيه. قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

قال طنطاوي: «أي: إن هؤلاء الراسخين في الكفر والنفاق، قد استوى عندهم استغفارك لهم وعدم استغفارك، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق والباطل، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب،

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة، رقم ٩٦٣، ٦٦٢/٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من صلوا عليه مائة شفعوا فيه، رقم ٩٤٧، ٦٥٤/٢.

ولذلك فلن يغفر الله تعالى لهم مهما حرصت على هدايتهم وصلاتهم^(١).

وبهذا المعنى قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

رابعاً: وجود النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

سبب نزول الآية: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت الآية^(٢).

والمعنى: وما كان الله مريداً لتعذيب هؤلاء الذين دعوا بهذا الدعاء الغريب تعذيب استئصال وإهلاك، وأنت مقيم فيهم - يا محمد - بمكة، فقد جرت سنته سبحانه ألا يهلك قرية مكذبة وفيها نبيها والمؤمنون به حتى يخرجهم منها ثم يعذب الكافرين، واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾

(١) التفسير الوسيط، ١٤/٤٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله تعالى: (وما كان الله معذبهم)، رقم ٢٧٩٦، ٤/٢١٥٤.

لتأكيد النفي، وللدلالة على أن تعذيبهم والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة^(٣).

والشفاعة التي تمنع أو تخفف من العذاب وخصوصاً في الآخرة، وهي على ثلاثة أنواع:

١. الشفاعة العظمى.

وهي شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف ليفصل الله بينهم، وهي المقام المحمود له، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَلْبَلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة، وفيه أن بعض الناس يقول: (ائتوا النبي صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه)^(٤).

٢. الشفاعة في أهل الجنة.

وهي ثلاثة أنواع:

✽ شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الجنة ليدخلوها.

✽ شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات أهل الجنة.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/٥٢١.

وانظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/٣٠٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (إنا أرسلنا نوحاً)، رقم ٣٣٤٠، ٤/١٣٤.

الحكمة من العذاب

لا يخلو شيء في الوجود من حكمة لله عز وجل منه، وكذلك العذاب له حكم جلية، منها:

أولاً: الفتنه والامتحان للمؤمنين والمحق للكافرين:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الرُّسُلُ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ خُصَمَائِهِمْ أَعْلَىٰ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [البقرة: 177].
﴿لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 1-3].

والمعنى: أظن الناس أن يتركوا بدون امتحان، واختبار، وابتلاء، وبدون نزول المصائب بهم؛ لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان؟ إن ظنهم هذا ظن باطل، وهم فاسد؛ لأن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فقط، بل هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من ألوان الابتلاء والاختبار، عن طريق التعرض لفقد الأموال والأنفس والشمرات، حتى يتميز قوي الإيمان من ضعيفه (٣).

قال القرطبي: «والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والوليد

﴿شفاعته صلى الله عليه وسلم في بعض المؤمنين ليدخلوا الجنة بلا حساب ولا عذاب.﴾

٣. الشفاعة لأهل الكبائر.
وهي نوعان:

﴿شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن استحق النار من أهل الكبائر أن لا يدخلها.﴾

﴿شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن دخل النار من أهل الكبائر أن يخرج منها.﴾

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (لكل نبي دعوة دعاها لأمته، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة) (١).

إذن فالشفاعة خاصة بأهل التوحيد ولا تكون للكفار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: (لقد ظننت، يا أبا هريرة، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قبل نفسه) (٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٩٠/١، ٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم،

باب الحرص على الحديث، رقم ٩٩، ٣١/١.

(٣) انظر: تفسير السرقندي، ٢/ ٦٢٤.

الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة^(٤).

وكما أن العقاب يكون امتحان للمؤمنين، يكون في المقابل محق للكافرين قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

قوله: ﴿وَيَمْحَقَ﴾ من المحق وهو محو الشيء والذهاب به، والمعنى: ولقد فعل سبحانه ما فعل في غزوة أحد، لكي يظهر المؤمنين ويصفهم من الذنوب، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم، ولكي يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيتهم وبطورهم^(٥).

ثانياً: تكفير الذنوب ورفع الدرجات للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْفَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَشِيرُ الصَّاعِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

الابتلاء عندما يتزل يكون للكفار محق

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٠٧، ١٥٩/٣.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢٣٠/١، رقم ٩٩٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٠.

بن الوليد فكانت صدورهم تضيق بذلك، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين. قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده، اختباراً للمؤمنين وفتنة^(١).

قال ابن عطية: «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، موجود حكمها بقية الدهر»^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

«أظننتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد في الأنفس والأموال، ومن مخاوف أزعجتهم وأفزعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم في أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام: متى نصر الله!!»^(٣)

ويأتي هذا الامتحان في شدته على قدر الإيمان، فعن سعد رضي الله عنه قال: (قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاءً؟ قال: (أشد الناس بلاءً

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/٣٢٣.

(٢) المحرر الوجيز، ٤/٣٠٥.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/٤٦٢.

والله ذنوب عبد بمرض يصيبه فعن جابر بن عبد الله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال: «مالك؟ يا أم السائب أو يا أم المسيب ترفزين؟» قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: (لا تسي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد)^(٣). إذا فتعجيل العقوبة في الدنيا للعبد الصالح إنما هو خير له، فعليه ألا يقنط أو ينحرف عن الطريق لأن عذاب الآخرة أشد وأبقى بينما عذاب الدنيا مهما كانت شدته فإنه يزول بعد فترة أو تعقبه السعادة الأبدية بإذن الله تعالى، بشرط أن يكون صاحبه مؤمناً صالحاً، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عليه ذنوبه حتى يوفيه يوم القيامة)^(٤).

ثالثاً: التحذير من التماذي في المعصية:

فتأتي مصائب الدنيا بمثابة إشارات وتنبيهات من الله تعالى للعبد أنه غارق في
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ١٩٩٣/٤، رقم ٢٥٧٥.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٦، ٦٠١/٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١١٨/١، رقم ٣٠٨.

وعذاب، وللمؤمنين الصابرين المحتسبين تكفير لذنوبهم ورفعة لدرجاتهم، والمعنى: ولنصيبكم بشيء من الخوف وبشيء من الجوع، وبشيء من النقص في الأنفس والأموال والثمرات، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون، فنرتب الثواب ورفع الدرجات على الصبر والثبات على الطاعة، ونرتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمر الله عز وجل، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوا أُنْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها)^(١).

وقد تصيب المؤمن المصيبة ترفع درجته في الآخرة إذا صبر واحتسب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل لتكون له المنزلة عند الله تبارك وتعالى فما يبلغها بعمل، فلا يزال يتليه حتى يبلغه ذلك)^(٢).

ومن هذا الباب، المرض فقد يكفر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم ١١٤٠/٧، ٥٦٤١.
(٢) أخرجه البيهقي في الآداب، رقم ٧٣٥، ٢٩٩/١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٣٣٥/١، رقم ١٦٢٥.

معصيته ويجب الرجوع قبل فوات الأوان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

أي: ولنذيقنهم من العذاب الأدنى الأهلون والأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا، عن طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة، دون العذاب الأكبر أي: الأشد والأعظم والأبقى، وهو عذاب الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم فيه من شرك وكفر وفسوق وعصيان^(١).

وقال تعالى: ﴿فَقُلْ لَا إِذَا جَاءَهُمْ بِأَسْنَا نَضْرَعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

يؤكد الله تعالى الحض على التضرع فقال: فهلا تضرعوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءهم بأسنا وظهرت بوادر العذاب، ولكن لم يفعلوا وقست قلوبهم، أي: ما رقت ولا خشعت، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فلم يعتبروا، وزين لهم الشيطان أفعالهم من الشرك والفجور والمعاندة والمعاصي، ووسوس لهم بأن يبقوا على ما كان عليه آبائهم^(٢).

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الذنوب أجدر بوقوع عذاب الدنيا

فقال: (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)^(٣).

رابعاً: العبرة والعظة:

قد يأتي العذاب عقوبة لصاحب المعصية أو لأهلها ليكونوا عبرة وعظة لمن بعدهم كما فعل الله بالأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

أي: أن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها، وعصيانهم لأمرنا، ليست هي القرية الوحيدة التي نزل بها عذابنا، بل إننا قد أهلكنا كثيراً من القرى من بعد زمن نوح عليه السلام كقوم عاد وثمود وغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الكفر على الإيمان والغي على الرشد.

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فهذه الآية الكريمة بجانب أنها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فهي أيضاً تهديد للمشركين، وإنذار لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم، ومعاداتهم للحق، وتطاولهم

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البغي، رقم ٤٢١١، ١٤٠٨/٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٩٩٤/٢، رقم ٥٧٠٤.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٣٣/٢١.
(٢) انظر: الوسيط، الزحيلي، ٥٤٨/١.

على من جاء به وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فسيكونون محلاً لغضب الله تعالى وسخطه، ولنزول عذابه الذي أهلك به أمثالهم في الشرك والكفر والجحود^(١).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠]

أي: جلسوا في مساكنهم فلم يسيرا في جنبات الأرض، فيشاهدوا كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم عاد وثمود ولوط وغيرهم، فكان الجواب: دمر الله تعالى عليهم مساكنهم وأموالهم، وقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ وعيد وتهديد لهؤلاء الكافرين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم أي: هكذا كانت عاقبة المجرمين السابقين، وللكافرين المعاصرين لك -أيها الرسول الكريم- السائرين على درب سابقهم في الكفر والضلال والطغيان، أمثال تلك العاقبة السيئة^(٢).

[انظر: الإهلاك: حكم الإهلاك]

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، الجزاء، الجنة، النار، اليوم الآخر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤٠٦/١٧.

وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١٣/٢٠.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣٥/٥.

